# المؤتلف الإنساني والسلام العالمي

عبد الرحمٰن السالمي ■

## السلام: القيمةُ المنسية

لم يخطر ببال أحدٍ منا يوماً ما قـط أن يتأمل مليّاً في هذا المبحث؛ لقد نحت الباحثون في العلاقات البشـرية ـ على المسـتوى الدولي ـ لفظاً خاصّاً بغاية توصيف المباحث التي تتناول «الحـرب» و«العـدوان» و«العنـف» ـ هـو لفـظ «علـم النـزاع» Polemology، وهو عِلْم متعدد التخصصات، اشـتُقّ اسمُه من الكلمة الإغريقية القديمة Polémos التي تعني «الحرب» و«المعركة»، ليدلّ به علـى «الدراسـات الحربيـة» War studies وعلى «اسـتراتيجيات الحرب» Strategies of War؛ ولكن الباحثين لم يشتقوا أو ينحتُوا لفظاً مبتدعاً للدلالة على ما يفيد معنى «مباحث السلام» حفاظاً وبناءً!

وهكذا، يبدو وكأن أمْر «السـلام» أمرٌ لا يمكن أن ننشئ حوله مبحَثاً، بَلْه مباحث، أو يظهر بالضد كما لو أن «السـلام» أمرٌ هيّنٌ لا يحتاج منا إلى إقامة مبحـث ـ فضلاً عن مباحث ـ حوله؛ إذ يرى هـؤلاء أنه يكفـي أن يصمـت دويّ المدافع بين الأُمم حتى تسـكن الكراهيات، وتهدأ الأحقاد وتشفى الأنفس وتبرأ الأرواح!

---

■ رئيس تحرير مجلة التفاهم.

## السلام الدولي من حيث هو «قيمة»:

عادةً ما ينصرف ذهنُنا عند الحديث عن «القِيم» إلى الحديث عن تلك «القِيَم» التي تحكُم صِلَتنا بالغير من جماعتنا، وهنا تبزغ في الذهن طائفةٌ من «القِيم» المتنوّعةِ، شأن قِيَم «الصدق» و«الصبر» و«الرحمة» و«الاحترام» و«المسؤولية» و«التضامن» و«التعاطف» و«التواد» و«البر» و«المحبة» و«عرفان الجميل» و«الكرامة» و«السخاء»... وعادة ما ننسى أن الأمر يتعلق بمن هم غير جماعتنا، وأن أول ما ينبغي أن نحترمه من قيمة في التعامل معهم إنما هو قيمة «السلام»؛ فدون سلامٍ لا إمكان لإقامة مجتمعٍ سواء أكان محليّاً أم دُوَليّاً. وقد خبرت الكثيرُ من الأُمم ـ بل البشرية جمعاء ـ أثناء الحروب قيمة «السلام». وهل كان من الضروري أن تخبرها على هذا النحو المأساوي؟

يبدأ المسلم تحية غيره بذكر كلمة السلام: «السلام عليكم»، وهي التحية نفسها التي يلقيها الشخص اليهودي على غيره «شالوم»، ويردد ما ورد في سِفْر أشعيا (أشعياء 57: 19): «خَالِقاً ثَمَرَ الشَّفَتَيْنِ. سَلَامٌ سَلَامٌ لِلْبَعِيدِ وَلِلْقَرِيبِ، قَالَ الرَّبُّ، وَسَأَشْفِيهِ». ويردد المسيحي ما ورد في إنجيل يوحنا (14: 27): «سَلَاماً أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلَامِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لَا تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلَا تَرْهَبْ». ويختم الهندوسي كل صلاة يصليها بتكرار ترنيمة كلمة واحدة في الدعاء التالي: *Om śāntiḥ śāntiḥ śāntiḥ*؛ بحيث تعني «سانتيه» الأولى «السلام مع الطبيعة»، وتعني «سانتيه» الثانية «السلام بين الكائنات البشرية»؛ أي السلام بين مجتمعاتها وشعوبها، وتعني «سانتيه» الثالثة «سلام النفس» أو «السلام الذاتي»؛ وذلك بحيث يبدو ـ بحسب الثقافة الهندية ـ أن ثمة إذن «سلاماً بيئيّاً» و«سلاماً اجتماعيّاً» و«سلاماً روحيّاً».

كل هذا وغيره من الشواهد يدلُّ على أن «السلام» ليس فقط «قيمةً» مثل باقي القِيَم في حياة الناس ـ مهما تعددت معتقداتهم وثقافاتهم وعوائدهم ـ وإنما هو أيضاً «قيمةٌ جوهرية» في حياة البشر، وإلا لما أُولي كل هذه العناية فيما يجمعهم بغيرهم (تحياتهم)، وبمعبودهم (صلواتهم)...

ومع ذلك تكاد روح «قيمة السلام» هذه تغيب عن ذهننا، فلا تتجاوز في أغلب الأوقات حناجرنا، ولا نفكر فيها التفكر الملائم لأهميتها.

## في «القِيَم» بعامة:

تُرى ما الذي تعنيه «القِيَم»؟ وما سمات «القِيَم» الجوهرية؟

**إنّ «السلام» ليس فقط «قيمةً» مثل باقي القِيَم في حياة الناس ـ مهما تعددت معتقداتهم وثقافاتهم وعوائدهم ـ وإنما هو أيضاً «قيمةٌ جوهرية» في حياة البشر، وإلا لما أُولي كل هذه العناية فيما يجمعهم بغيرهم (تحياتهم)، وبمعبودهم (صلواتهم).**

### 1 ـ في معنى «القِيَم»:

القِيَم الإنسانية عبارة عن «مُثُل» تترجم عن «أفعال» و«فضائل» تسمح لنا بالتفاعل مع أفراد آخرين أو جماعاتٍ أو أُممٍ وبالتعايش. ويرى كثير من الباحثين أن هذه القِيَم «كونيّة»؛ بمعنى أنه قد ائتلف ـ ويمكن أن يأتلف ـ حولها معظم البشر وأن «يتشاركوها»، وذلك على الرغم من اختلاف أفكارهم الدينية، وتبايُن أصولهم العرقية، وتنوّع تاريخهم الاجتماعي والثقافي. وبهذا يميل كثير من مفكري القِيَم إلى عدِّ القِيَم التي تحكم التعايش بين الناس قيماً مشتركة؛ أي متشاطرة بين جميع البشر، تآلف عليها معظمُ الناس، والآدميون متآلفون عليها اليوم، وسوف يبقون متآلفين عليها في المستقبل. وهم يُدخلون في عدادها القِيَم التالية: «الاحترام» و«الحرية» و«الطيبة» و«العدالة» و«المساواة» و«النزاهة» و«التضامن» و«الصداقة» و«السلم»... وتقوم ضدَّ هذه القِيَم «قيمٌ مضادة» أو «قِيَمٌ سلبية» أو «لا قِيَم»، هي: «الإهانة» و«العبودية» و«الشّرّية» و«الظلم» و«التمييز» و«التحيّز» و«الأنانية» و«العداوة» و«الحرب» أو «العنف»...

### 2 ـ في توسيم القِيَم:

وتتسم «القِيَم» بعدة سمات، اختلف الباحثون في توصيفها؛ لكنها وردت في معظم السمات التي وضعوها:

**أولاً:** سمة «الماهوية»: القِيَم «ماهِيَّات»؛ بمعنى أنها مفاهيم عامة لا تقترن بالضرورة بأشياء متعينة. وهكذا، فإننا حين نذكر ـ مثلاً ـ الأمر «الطيّب» أو «العذْب» أو «النافع»؛ لا نربط بالضرورة هذه المفاهيم بشيءٍ محدد: هذه المياه العذبة، مثلاً؛ وإنما ترتبط هي بعلامات نتعرف بها عليها: «الحسن» أو «القبيح»، «الإيجابي» أو «السلبي»، «المرغوب فيه» أو «المنبوذ»، «المستحسن» أو «المستبشع»...

**ثانياً:** سمة «الوجدانية»؛ ترتبط القِيَم ارتباطاً وثيقاً بوجداننا؛ بحيث ننجذب بوجداننا أيَّما انجذاب إلى القِيَم الإيجابية، وننفر بوجداننا أيما نفور من القِيَم السلبية؛ وذلك ـ مثلاً ـ كأن ننجذب انجذاباً وجدانياً إلى «العدل»، وكأن ننفر نفوراً عاطفياً من «الظلم». وما كان يمكن أن يحدث لنا ذلك لو ما كنا نعدّ الأولَ «قيمةً» إيجابية، ونعدّ الثاني «قيمة مضادة»، أو «لا قيمة».

**ثالثاً:** سمة «التراتبية»؛ من شأن القِيَم أن تتراتب التراتب؛ بحيث تتصنف هي ـ في أبسط تصنيف ـ إلى «قِيَم إيجابية» وإلى «قِيَم سلبية». وهكذا، نجد مثلاً أن «المستعذَب» و«المُلِذّ» و«المُسعِد» أو «المُفرِح» أمور تحظى بتقديرنا؛ ومن ثمة تعدّ إيجابيةً من لدُنَّا؛ بينما «المؤلم» و«المستبشع» و«المحبِط» تلك قِيَم ننفر منها؛ فتعدُّ بذلك «قِيَماً سلبية» من لدنَّا... هذا من جهة التراتبية الخارجية؛ أي من جهة اعتبار القِيَم في صلتها باللاقيم أو بمضادات القِيَم. أما من جهة التراتبية الداخلية؛ فإننا نجد أن القِيَم تتراتب بحسب تفضيلات الأشخاص والأقوام؛ فأنت تجد ـ مثلاً ـ من يرى أنّ القيمة الأعلى في حياته هي «الحرية»؛ بينما يراها بعضهم في «الإيمان»، وثالث يلفي في «العدالة» القيمة الأولى أو الأعلى....

**رابعاً:** سمة «الديمومة»؛ من شأن القِيَم ـ بعامة ـ أن تدوم أمداً طويلاً، ويكون بعضها أدوم من بعض.

**خامساً؛** سمة «المرونة»: من شأن القِيَم البشرية أن تتغير، وأن تتبدل، وأن تتكيف بحسب تجارب كل فرد وحاجاته، وبحسب تصاريف الزمان بكل جماعة أو قوم.

**سادساً:** سمة «القطبية»؛ وتعني أن للقِيَم قطبين: «قطباً موجباً» ـ القِيَم الإيجابية ـ و«قطباً سالباً» ـ القِيَم السلبية ـ إذ لكل قيمةٍ قيمةٌ مضادة تقابلها: العدل / الظلم، السلم / الحرب، الحق / الباطل، الخير / الشر...

**سابعاً:** سمة «الرضائية»: مِن شأن مَن يزاول أفعالاً محددة بالقياس إلى قيمة معينة أن يشعر بالرضا عن نفسه؛ كأن يكرم غيره؛ إيماناً منه بقيمة «الجود»، فيشعر باهتزاز الأريحية. ومِن أمْرِه أن يحفز الآخرين على الحصول على المزية الرضائية نفسها التي تجعلنا نتعلق بالقِيَم أيَّما تعلُّق.

### 3 ـ في تصنيف القِيَم:

جرت العادة ـ في الأغلب ـ على تصنيف «القِيَم» على النحو التالي:

ـ ثمة القِيَم السياسية والاجتماعية: تلك القِيَم التي تمكّن الأفراد والجماعات والأُمم من العيش بوئام في المجتمعات المحلية أو القومية أو الدولية؛ أي تلك القِيَم التي تسمح للناس بالتعايش.

ـ وثمة القِيَم الاقتصادية: أي تلك القِيَم التي تضمن لشخصٍ ما أن يعيش عيشاً وأن يكسب كسباً حيث يحيا؛ بما في ذلك القِيَم المادية مِن شُغْل ومال.

ـ وثمة القِيَم الأخلاقية: وهي قِيَم تدخل في إطار التزامات الأفراد أو الجماعات، وتشمل جملة القواعد والمعايير التي تسمح لنا بحسْن التصرف في وسطنا الذي نحيا فيه.

ـ وثمة القِيَم الجمالية: وهي تلك القِيَم المتعلقة بأذواقنا في استحسان الأمور الجميلة وفي استقباح الأمور البشعة، وذلك بحسب ما يتبدى من وجوه هذه الموضوعات المعروضة على إدراكاتنا.

**القِيَم «ماهِيَّات»؛ بمعنى أنها مفاهيم عامة لا تقترن بالضرورة بأشياء متعينة. وهكذا، فإننا حين نذكر ـ مثلاً ـ الأمر «الطّيّب» أو «العذْب» أو «النافع»؛ لا نربط بالضرورة هذه المفاهيم بشيءٍ محدد.**

## في السلام مؤتلفاً إنسانيّاً

### 1 ـ في المؤتلف الإنساني بعامة:

كثيرةٌ هي الصيغ التي ترمز إلى محتوى يشبه محتوى المؤتلف الإنساني؛ إذ كثر الحديث ـ في السنين القليلة الماضية ـ عن «حوار الديانات»، وعن «لقاء الثقافات»، وعن «تحالف الحضارات»... والحال أنه ـ على وجه التدقيق ـ الأديان لا تتحاور؛ وإنما رجالُها هم الذين يحْدث لهم أن يتحاوروا، إن هم رغبوا في ذلك، وعديدٌ منهم ما زال لا يرغب. كما أن الثقافات لا تتحاور؛ وإنما البشر حاملو هذه الثقافات هم الذين مِن أمْرهم أن يتحاوروا إنْ حدث لهم أن تحاوروا، وهم مَنْ مِن شأنه أن يتعارف إن حدث لهم أن رغبوا في ذلك. وقد يحدث لهم ـ وهذه هي العادة الجارية مع الأسف ـ أن يتجاهلوا بعضهم بعضاً. هذا فضلاً عن أن الحضارات لا تتحالف في مؤتلف؛ وإنما بَشر هذه الحضارات هم مَنْ مِنْ شأنهم أن يتآلفوا في مؤتلف... وهكذا، فإنه بينما تنصرف مشاريع عديدة لتحقيق وحدة البشر إلى «مفاهيم مجردة» و«ماهيّات عامة» ـ شأن «حوار الحضارات» و«لقاء الثقافات» و«تحالف الديانات» وغيرها ـ ينزع مشروع المؤتلف الإنساني إلى لزوم «الإنسان» نفسِه، في كيانيته وفي عيانيته وفي تشخيصيته، حاضّاً له على النظر فيما يجمعه بأخيه الإنسان، ولا يركز بالبدل من ذلك على مفاهيم قد تبدو «مجردة» «نخبة» «هواء».

### 2 ـ في السلام مؤتلفاً إنسانيّاً بخاصة:

#### أ ـ في مقدمات السلام مؤتلفاً إنسانياً: من التفكير في الحرب إلى التفكير في السلام

أثمر النظر في «فن الحرب» عن أدبيات تكاد لا تُعدُّ حصْراً، ولا تُحصى تنوعاً، وهي أدبيات تعود أصولها ـ بحسب الوثائق التي حفظت لنا ـ إلى الحضارتين القديمتين اليونانية والصينية. وذلك رغم أن العديد من المؤلفات في «فن الحرب» ما كان غرضُها الأول استثارةَ الحروب، بقدر ما كان هو ضبط النفس في الحروب، وإسداء النصح إلى الأمراء في أثناء خوضهم الحروب، أو حتى تنبيه الأجيال القادمة إلى أمور الحروب

ودواعيها وآثارها... وقد عملت النزعة الإنسانية ـ في بعض الأحيان ـ على إلهام المفكرين الاستراتيجيين ـ في أوروبا القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ـ للنزوع نحو تقليص حجم الخسائر التي يقتدر الإنسان على إلحاقها بالإنسان؛ مما ترتب عليه وضْع قواعدَ للحرب، وإنشاء فكْر استراتيجي مستلهَم من النزعة الإنسية، التي لطالما أدانت الحروب وما تتركه من دمار على المنهزم وعلى المنتصر على حدٍّ سواء. وقد نشأ عن هذا النزوع تفكيرٌ قيمي فلسفي عميق في العلاقات الدولية ـ حرْباً وسِلْماً ـ تمثل في ثلاثة تقاليد:

**كثيرةٌ هي الصيغ التي ترمز إلى محتوى يشبه محتوى المؤتلف الإنساني؛ إذ كثر الحديث ـ في السنين القليلة الماضية ـ عن «حوار الديانات»، وعن «لقاء الثقافات»، وعن «تحالف الحضارات».**

1 ـ التقليد الذي يبدأ مع فيلسوف القانون ومفكر السياسة الهولندي هوغو غروتيوس (1583 ـ 1645) ـ أحد مؤسسي فكرة «قانون الحرب» ـ وهو التقليد المسمى «تقليداً جامعياً» ـ مشتق من «جامعة الدول» أو من «رابطة الدول» ـ والذي يرى أن السياسة الدولية أمرٌ يعود إلى جامعة دول يفترض فيها أن تكون على قدْرٍ من «التعقل».

2 ـ والتقليد الذي يعود إلى المفكر السياسي والفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز (1588 ـ 1679)، وهو التقليد المدعو «تقليداً واقعياً»، والذي لا يرى في العلاقات الدولية سوى «حالة حرب».

3 ـ والتقليد الذي يرمز إليه اسم الفيلسوف الألماني إمانويل كانط (1724 ـ 1804)، المسمى «تقليداً كونيّاً»، والذي يرى أن التاريخ يكشف عن ميلاد رابطة أُمم دولية تجعل من السلام أمراً ممكناً[1].

1 ـ للمزيد من التفاصيل حول هذه التقاليد الثلاثة التي يبدو أنها منذورة، إلى أمدٍ بعيدٍ، نحو التحكم في العلاقات الدولية وفي مسألة السلام، يرجى العودة إلى الكتاب الكلاسيكي المهم الذي لم يفقِد ـ على الرغم من مر الأيام ـ راهنيته:

Bull. H., The Anarchical Society. A Study of Order in World Politics, London: MacMillan, p. 24.

لكننا نريد أن ننظر هنا في قيمة «السلام» بخاصة:

أهذا السلام ـ يا ترى ـ «أمرٌ معطًى» للإنسان بالطبيعة أم هو «شأن مقام» يحتاج إلى من يقيمه؟ بمعنى آخر: أهذا التعايش ـ بين الأفراد كما بين الجماعات ـ «عمل طبيعي»؛ أي نتاج «طبيعة الإنسان» من حيث هو إنسان؟ أم إنه «عمل فني»؛ أي ثمرة جهد للبشر يبذلونه كل البذل حتى ولو كان ذلك ضدّ «طبيعتهم» «المفترضة»؟

ذهب العديد من الباحثين إلى أن استقراء تاريخ البشر ـ أو ما كان يسميه الفيلسوف المسلم مسكويه باسم «تجارب الأُمم» ـ لربما يكون أميل إلى الطرح الثاني؛ إذ لاحظوا أنه لم يترتب قط سلم يوماً من تلقاء نفسه؛ وإنما البشر هم من يقيمه بعد أن يكونوا ـ مع الأسف ـ قد زرعوا بذور الفتنة وقرعوا طبول الحرب، بل وتحاربوا آماداً وآجالاً، وأفنى بعضهم بعضاً إفناء. وقبل نشأة المجتمعات البشرية، كان قد أقام الأفراد المعزولون السِّلم بانضمامهم إلى المجتمع، مُحلِّين بذلك «القانون» محل «القوة»، أو واضعين «قوة القانون» موضع «قانون القوة». لكن ما كل المجتمعات البشرية ـ بعد أن نشأت هي ـ أقامت فيما بينها هذا السلام الذي أقامه الأفراد.

ويستنتج هؤلاء الباحثون من هذا الاستقراء للتاريخ أمرين:

1 ـ إن صفحات سعادة الأُمم في كتاب التاريخ المفتوح أُوَيقات قليلة، مكتوبة بالبياض، بحسب عبارة هيجل في محاضراته في فلسفة التاريخ، بينما الغالب على صفحات تاريخ البشر أن تُكتب بالسواد.

2 ـ إن شأن السلام ـ إنْ هو أُريد ـ أن يقام بالائتلاف لا بالطبع؛ إذ قد يكون الطبع مولداً الاختلاف، مؤدّياً إلى التنازع، مُشعلاً للحروب.

وقد يضيف هؤلاء إلى الحجة الاستقرائية التاريخية حجة بيولوجية طبيعية؛ فيرون ما رآه عالم البيولوجيا الإنجليزي الشهير إدوارد ويلسون (1929-) من أن «طبيعتنا الدموية ـ وهذا ما يمكن إثباته في سياق علم الأحياء المعاصر ـ متجذرة أيما تجذر فينا؛ وذلك لأن الأرسومة «قوم ضدّ قوم» كانت هي القوة المحركة الأولى التي جعلت منا ما نحن إياه. فخلال

حقبة ما قبل التاريخ انتقى الاصطفاء الطبيعي ضرباً من البشـر، وقد أمسوا حيوانات لاحمة، ورفعهم إلى آفاق عليا من التضامن والعبقرية والمبادرة ـ ومن الخوف أيضاً. وبهذا أمسـت كل عشـيرة تعلم علماً مسـبقاً بأنه بلا أسـلحة وبلا إعداد فإن وجودها يصيـر في خطر. وطوال التاريـخ كان التعارك العلّة الجوهرية لتطور جزء كبير من التكنولوجيا»[2]. وبناء على هذه المقدمة يستنتج ويلسون ما يلي: «لا ينبغي أن نعتقد أن الحرب ـ وقد ترافقت عادةً مع أعمال إبادة جماعية ـ شـيء حادثٌ وثقافي مرتبط فقط ببعـض المجتمعات. لا ولا كانت الحرب مجرد حالة شـاذة في التاريخ، وثمـرة آلام متنامية ناجمة عن نضج الأنواع؛ إنما الحروب والإبـادات الجماعية كونيّةٌ وأبدية، وهي لا تسـتثني أيـة حقبة ولا أية ثقافة»[3]. هذه هي «المروية» التـي عادةً ما يتمّ الاستناد إليها. وهي مروية إذا تُؤمِّلت بدت وريثة الفكرة التطورية في القرن التاسع عشر الميلادي، وانكشـف أنها مبنية على تعميمـات معيبة كثيرة، وأنها إنما تبتغي التطبيع مع الحروب.

**ذهب العديد من الباحثين إلى أن استقراء تاريخ البشر ـ أو ما كان يسميه الفيلسوف المسلم مسكويه باسم «تجارب الأُمم» ـ لربما يكون أميل إلى الطرح الثاني؛ إذ لاحظوا أنه لم يترتب قط سلم يوماً من تلقاء نفسه.**

وقد تصدّى لهذه الأطروحة التنازعية العديد مـن الباحثيـن، كاشـفين عـن اسـتراتيجيتها «التضليليـة» المتمثلـة فـي اتباعهـا الخطوات الحجاجية الاستدراجية التالية:

1 ـ تتعمد هي التشديد على العنف وتتجاهل كل حجة مضادة.

2 ـ تتشدد في وضع شـروط تعجيزية بحيث تطالب بأن يتمّ تقديم مثالٍ مضادٍّ عن مجتمع مسـالم بالتمام والكمال لم يشـهد يوماً من الأيام نزعات عدوانية؛ فإذا ما تبيّن استحالة ذلك بادرت إلى الاسـتنتاج بأن ما كانت قد افترضتْه أصلاً مصادرة بذلك على المطلوب.

2 ـ E. O. Wilson, The Social Conquest of Earth, New York: W. W. Norton and Co, 2012, p. 62.

3 ـ Ibid., p. 65.

3 ـ تبالغ هي في عدِّ كل نزاع أو خلاف داخل أي مجتمع أو بين مجتمعات حرباً كاملة الأوصاف. ومن ثمة تعمم فكرة الحرب على كل حادثة شهدتها المجتمعات، ولو كانت مناوشة صغيرة.

4 ـ تبادر إلى افتراض ـ على سبيل التجربة الذهنية ـ مجتمع مسالم بالتمام وتبيّن عن استحالة وجوده، مصادرةً بذلك مرة أخرى على المطلوب.

بناءً عليه، يميل العديد من الدارسين إلى مجابهة قارعي طبول الحرب هؤلاء. ويستند خصومهم من دعاة السلام إلى الحقائق المضادة التالية: كلا؛ ما كان اللاعنف والسلام نادرين في تاريخ البشر، حتى وإن مالت المدونات القديمة إلى التعتيم على تلك الصفحات؛ سعياً إلى تدوين غير المعتاد ـ الحروب ـ وإغفال المعتاد ـ السلام. وإنه لينكشف أن وراء موجة «تحريب تاريخ العالم» هذه مواقف «ثقافوية» و«إيديولوجية» غربية في معظمها، وخاصة أمريكية شمالية، تنزع إلى تقديم الطبيعة البشرية كما لو كانت طبيعة تنافسية تنازعية عدوانية بالأصل والمبدأ. بيد أن دراسة المجتمعات البدائية أظهرت ـ وفق العديد من البحوث التي لا يتسع المجال هنا لذكرها ـ أن السِّلم كان أصلاً، وأن الحرب شكّلت استثناء. ولهذا يستحق السلام أن يدرس مثله مثل الحرب بل وأكثر.

## ب ـ في دواعي مؤتلف إنساني حول السلام الدولي:

### 1 ـ واقع الحال:

«ينبغي إقامة السلام العالمي بين الأُمم»: يشكِّل هذا المطلبُ في حدِّ ذاته «أمراً أخلاقيّاً» categorical imperative ـ «يا هذا أقم السلام» ـ بالنسبة إلى الجنس البشري بعامة، وبالنسبة إلى كل عضو من أعضاء هذا الجنس بخاصة؛ وذلك لأن حال الأشياء ومجريات العالم وجائبات الأخبار ـ على المستوى الدولي ـ يعدُّ ـ واقعياً ـ أمراً غير أخلاقي لا يمكن السماح به ethically intolerable، ويعد ـ فكريّاً ـ شأناً مثيراً للتمرد وقول: كفى! intellectually revolting؛ ففيما يخصُّ صلة الشعوب بالشعوب اليوم، ما زالت بعض الأُمم تعيش عهوداً أشبه ما تكون بعهود المغارات. والحال أنه يكاد يكون قبول هذا الوضع عملاً من أعمال شيطان أخرس.

لئن كان السلام بين الأفراد داخل المجتمع قد تحقق ـ ولو في جزء منه ـ داخل نظام العشيرة أو القرية أو الحاضرة أو الدولة؛ فإن السؤال الذي يُطرح هو: كيف يمكن تحقيق السلام بين الأُمم؟

لقد فكّر منظرو العلاقات الدولية جليّاً في هذا الأمر، وانتهوا إلى أن ثمة ثلاث طرق يمكن بحسبها تفسيرُ أسباب ولحظات غياب السلام؛ أي أسباب اندلاع الحروب:

ـ ثمة من ذهب إلى أن من «طبيعة البشر» أن يكونوا «أشراراً» و«أغبياء»؛ ومن هنا أُتُوا من حيث نشوب الحروب بينهم.

ـ وثمة من مال إلى أن «الدول» تتحارب لأنها لم تُدَر بحسن إيالة.

ـ وثمة من حمَّل «النظام الدولي» نفسه المسؤولية: لَئِنْ كان يسمح بالحرب، فلأنه فوضوي المنزع[4].

**لئن كان السلام بين الأفراد داخل المجتمع قد تحقق ـ ولو في جزء منه ـ داخل نظام العشيرة أو القرية أو الحاضرة أو الدولة؛ فإن السؤال الذي يُطرح هو: كيف يمكن تحقيق السلام بين الأُمم؟**

فأما **الطريق الأول** ـ والذي يمكن تسميته باسم «الطريق الأخلاقي» أو «الطريق الروحي» ـ فإنه يقتضي «إصلاح» طبيعة الكائن البشري و«تربية» الإنسان الجديد نحو تحقيق مثال «الإنسان السلمي» Homo pacificus

وأما **الطريق الثاني** ـ وهو المسمى باسم «الطريق السياسي» ـ فإنه يتطلب إقامة «الدولة الكاملة» التي يفترض أن تكون بنيتُها الداخلية معاديةً بالقوة للحرب، ومقيمة لما اصطلح على تسميته علماء السياسة ومفكروها وفلاسفتها باسم «المدينة المسالمة» أو «المدينة السلمية» أو «مدينة السلام». وقد ذكر الفارابي ـ في كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ـ نوعين من المدن: «مدينة التغلب»؛ وقد أشار إليها في الفصل التاسع والعشرين من كتابه ذاك،

4 ـ انظر، مثلاً، كتاب: Kenneth Waltz, *Man, the State and War. A Theoretical Analysis*. New York, Columbia UP, 1959.

وعرّفها على النحو التالي: «هي التي قصد أهلُها أن يكونوا القاهرين لغيرهم، الممتنعين أن يقهرهم غيرُهم، ويكون كدهم اللذة التي تنالهم من الغلبة فقط»[5]. ثم هناك «المدينة المسالمة». وقد ذكرها الفارابي في الفصل السابع والثلاثين من كتابه، وأشار إلى أن أهل المدن قد ينقسمون إلى طائفتين: طائفة تنشد المغالبة، بما تشعر به في نفسها من قوة على المغالبة والمدافعة، وطائفة تنشد المسالمة؛ لأنه ليس يحدث في أنفسها ذلك الشعور. وهو يرى أن هذه الطائفة «سليمة النفوس»؛ بينما الطائفة الأولى «رديئة النفوس؛ لأنها ترى المغالبة هي الخير، وذلك بوجهين: مجاهدة ومخاتلة»[6]. غير أن الفارابي ينسب الطائفتين معاً ـ على تباين موقفه منهما ـ إلى تلك الطوائف التي تعيش في «مضادات المدينة الفاضلة»؛ أي إلى «المدن الجاهلية»، لا سيما منها «المدينة الجماعية»؛ أي المدينة الديمقراطية. وهذا يستدعي منا أكثر من مجرد استغراب ليس هذا محل بسْط القول فيه.

وأما **الطريق الثالث** ـ وهو الطريق المسمى باسم «الطريق الدولي» أو «الطريق العالمي» ـ فيدعو إلى إقامة نظام دولي كامل شامل، أو على الأقل إيجاد أكثر الأنظمة العالمية انتظاماً؛ أي ما سماه الباحثون بمسمى «النظام الدولي السلمي» Orbis pacificus

وعند العديد من الباحثين، فإن من شأن مؤتلف إنساني قائم على «الفرد» وحْدَه أو على «الدولة» وحدها أن يكون غير كافٍ لإقامة سلام عالمي؛ بل إنه قد يبقى مجرد «وهم» و«حلم». ويرى هؤلاء أنه حين نسلّم إلى قلب الإنسان مفتاح مسألة الحرب والسلام؛ فإننا آنها سرعان ما نقع بين قرني إحراج: إما أن تكون الطبيعة البشرية طبيعة «طيبة»، وإذا كان ذلك كذلك؛ كيف يتأتى لنا آنها تفسير الحرب ولو بحسبانها حالة شذوذ.

وإما أن تكون الطبيعة البشرية طبيعة «شريرة»، وعليه تصبح الحرب ظاهرة يستحيل اقتلاعها من جذور نفس بشرية يفترض أنها متعطشة إلى

5 ـ أبو نصر الفارابي: كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثامنة، 2002، ص 132.

6 ـ المصدر السابق، ص 166.

الدماء وممتلئة بالكراهية ومنفعلة بسَورة القتال. وقد وُجد هذا الوصف لحال الإنسان المفترض منذ القدم في مرويات هوميروس؛ ذلك أنه كان يرى أن البشر لا يحتاجون إلى «أسباب» لشن الحروب؛ وإنما يحتاجون فقط إلى مجرد «ذرائع». وقد وقف عالم النفس والفيلسوف الأمريكي وليام جيمس ليقول أمام حشد من دعاة السلام الكاثوليك في بداية القرن العشرين: «the plain truth is that people want war»[7].

وإذا ما سُئل الفيلسوف: فكيف نفسر إذن استتباب السلام في حقب من تاريخ البشرية؟ فإن جوابه يكون على النحو التالي: أبداً، لم يحدث في تاريخ البشرية أن أقيم السلام عفو الخاطر وبطريقة تلقائية. ومهما وُجد من أناس طيبين وحسَني النيات وصادقي الطوية؛ فإن الأغلبية تكون دائماً للأشرار، والكلمة تؤول إليهم في نهاية المطاف. ولهذا يرى وليام جيمس أنه ينبغي قمْع ميولات الإنسان القاتلة، وذلك باللجوء إلى المؤسسات الاجتماعية التي من شأنها ترويض شراسة الإنسان ترويضاً. ومن ثمّ يحيلنا هذا الأمر إلى الطرح الثاني المتعلق بالدولة.

**عند العديد من الباحثين، فإن من شأن مؤتلف إنساني قائم على «الفرد» وحْدَه أو على «الدولة» وحدها أن يكون غير كافٍ لإقامة سلام عالمي؛ بل إنه قد يبقى مجرد «وهم» و«حلم».**

تقول هذه الأطروحة بأن على الدولة أن تملي التزام السلام على رعاياها، وأن وظيفتها الأصلية تتمثل في أن تحلّ السلام بينهم؛ لكن يمكن ـ عند بعضهم ـ أن تقيم الدولة الحرب مع الدول الأخرى، وعند بعضهم الآخر لا يمكن للدولة إلا أن تفعل ذلك، وكأننا أمام قدر محتوم، ويعللون ذلك بكون الإنسان منذوراً ـ بضرب من البرمجة التي تكاد تكون وراثية، أو بضرب من الاصطفاء الطبيعي المزعوم ـ نحو التعاون مع أعضاء عشيرته صوب القتال ضدّ «الغرباء» والنزال مع «الأجانب». اللهمَّ إلا إذا

7 ـ William James, «Remarks at the Peace Banquet», speech given in October 1904 at the Universal Peace Congress in Boston and reproduced in *Memories and Studies*. New York / London, Longmans, Green & Co., 1917, p. 304.

ما نحن استطعنا تأسيس دولة غير محاربة، دولة تكتفي بالتجارة بدلاً عن الحرابة مثلاً... وقد تنوعت أساليب توصيف هذه الدولة: فعند بعضهم هي «الدولة الجمهورية»، وعند آخرين هي «الدولة القومية»، وعند ثوالث هي «الدولة القائمة على التبادل الحر»، وعند آخرين بالضدِّ هي «الدولة المكتفية بذاتها»، وعند خوامس هي «الدولة الاشتراكية»، وعند سوادس هي «الدولة الديمقراطية المسالمة». وكلٌّ يدعو إلى دولته، ويشترط أن تتحول الدول الأخرى إلى دول شبيهة إلى دولته، وإلا بقيت «الدول الشريرة» تشن الحرب على دولته «الطيبة» تلك. لكن هاهنا أيضاً نجد أنفسنا أمام قرني إحراج: لئن كانت للإنسان طبيعة؛ فإما أن تكون هذه الطبيعة «خيرة» وإما أن تكون «شريرة»، وإذا كانت «خيرة»؛ فإن السلام يغدو آنها أمراً «عادياً» و«مضموناً» و«مكفولاً»، وإن كانت على غير تلك الصفة، فكيف يمكن لدول أفرادها «أشرار» ـ في معظمهم ـ أن تشيد السلام؟! فقد تحصل إذن أنه لا بد من «نظام عالمي» لقمع «الشريرين» من الأفراد داخل الدول من الذين يعترضون على السلام. وها نحن أولاء أمام الطريق الثالث.

الخائضون في هذا الطريق قد ولّوا ظهورهم إلى نظرية الفيلسوف الألماني كانط، الذي كان يعوّل على «تحسن النوع البشري» و«اكتمال الطبيعة البشرية»، كما أنهم ما عادوا ينتظرون تحسن جنس بني الدولة؛ إذ بحسب ما يذهبون إليه، ما كان فساد الحكومات الداخلية هو ما تنتج عنه الحرب؛ بل الحرب هي التي يمكن أن تتسبب في فساد الحكومات. والتعويل على تحسن الجنس البشري وعلى مستقبل زاهر للإنسان إنما هو تعويل على «وهم»؛ لهذا السبب ينبغي ـ كبديل ـ فرْض نظام دولي قائم سلمي[8].

ولذا فعادةً ما وصف النزوع إلى «تأديب» الفوضى الدولية بأنه أمرٌ «غير قابل للتحقق» و«غير مرغوب فيه» بل و«سطحي»؛ أمرٌ غير قابل للتحقق؛ لأن تشكل العالم كما هو اليوم ـ تعدد الأُمم وقد وجدت نفسها في حال من التنافس شديد ـ إنما هو «واقعة طبيعية»، وقد يؤدي إلى «الحرب» بوصفها

8 ـ انظر تفاصيل هذه الطرق مثلاً عند: Francis H. Hinsley, *Power and the Pursuit of Peace. Theory and Practice in the History of Relations between States*. Cambridge, Cambridge UP, 1963.

جزءًا من تاريخ البشرية، وما من محاولة لاجتثاثها إلا وسوف تكون عملاً دون جدوى، وأمراً غير مرغوب فيه؛ لأن الحرب ليست جوانبها سلبية فقط ـ كما يرى دعاة هذا التصور ـ وإلغاؤها قد تكون ضريبته أسوأ من إبقائها.

وأمرٌ سطحي؛ لأن الفوضى المدعاة ما كانت فوضى على الحقيقة؛ بل يمكن للتعاون أن يسد مسد التنافس، وأن يحلّ الضبط محل الشذوذ، وفضلاً عن هذا وذاك، ما فتئ النظام الدولي يتحسّن بالقياس إلى الماضي، وهو اليوم في تحسُّن نحو المستقبل.

**ما كان فساد الحكومات الداخلية هو ما تنتج عنه الحرب؛ بل الحرب هي التي يمكن أن تتسبب في فساد الحكومات. والتعويل على تحسن الجنس البشري وعلى مستقبل زاهر للإنسان إنما هو تعويل على «وهم».**

يذهب الكثير من المنظرين السياسيين الدوليين إلى القول بأن مجرد اللجوء إلى السلاح أمرٌ فادح فاضح، فما تتم إدانته على مستوى الفرد ـ حق الأقوى ـ لا يمكن قبوله على مستوى الدول. ومن يستنكر أن يعتدي واحد قوي على واحد ضعيف، فإن الأحرى به أن يستنكر أن تعتدي ملايين من الناس مستقوية على ملايين من البشر مستضعفة، وأما التعلل بأن الحروب قد وجدت دوماً فليس ينهض دليلاً على أنه لا يمكن منْعُها.

وبعد، لقد شهد الفيلسوف الألماني كانط على مفارقة وعبر عنها على النحو الموجز التالي حين قال: «لا شيء يشهد على فظاعة الطبيعة البشرية مما تتجلّى به في العلاقات بين الشعوب».

وعادة ما تمّ وصف المؤمنين بإمكان قيام تآلفٍ بين البشر حول السلام على أنهم «طوباويون». وكلمة «طوباوية» أو «يوطوبيا» تعني «لا مكان» «لا موضع». فإذا ما وجد لهم موضع فهو في «لا مكان»، في أطلس الجزيرة الخرافية، في أوقيانوسيا المتخيلة، في دول على سطح القمر، كما يقول الباحث برونو أرسيغيادونو المتخصص في شؤون السلام الدولي[9].

9 ـ Stella Ghervas review of Bruno Arcidiacono, Cinq types de paix. Une histoire des plans de pacification perpétuelle (XVIIe-XXe siècles) [Five Types of Peace. A History of the Plans for Perpetual Peace, 17th - 20th centuries], Paris, PUF, 2011. p. 465.

وما طفق مفكرو البشـرية يلاحظون ـ منذ أقدم العصور ـ «حالة الحرب الدولية»، كما عبّر عنها المفكر السياسي والأديب السويسري جان جاك روسو (1712 ـ 1778)، بل كما كان قد عبر عنها من قبلـه الحكيم الإغريقي أفلاطون (428 ق.م ـ 348 ق.م)؛ تلـك الحالة التي رأوا أنها حكمـت وتحكم وقد تحكم العالم. فمنـذ أكثر من ألفي سـنة كان أفلاطون قد ميّز ـ في كتابه الشـهير: «محاورة النواميس» ـ بين ضربين من السلام: السلام المدني [داخل الدول]، وقد وجد أنه أمْرٌ ممكن، بل ومطلوب؛ و«السلام الخارجي» (بين الدول)، والذي رأى أن لا وجود لـه على الحقيقـة. يقول على لسـان أحد أبطـال محاوراته: «الاعتقاد في هذا السراب [= السلام] إنما هو بلاهة يقترفها العدد الأكبر من الناس ممن لا يريدون أن يفهمـوا بأن كل قاطنة مدينة معينـة إنما ينخرطون حياتهم في حرب لا تتوقف ضد كل المدن الأخرى... فما يسـميه أغلب الناس «سلاماً» ما كان إلا مجرد اسم؛ ذلك أن الواقع يشهد بأن كل المدن منخرطة ـ بالطبع وعلى وجه الدوام ـ في حرب غير معلنة ضدّ سائر المدن الأخرى»[10].

ها قد قامت مدونة هذا المشرع الكريتي الذي ذكره أفلاطون ـ في كتاب محاورة النواميس ـ على مصادرة، هي: «مصادرة قيام حرب دائمة». وقد وجد هذا الموقف صدى له لدى المفكر السياسـي ورجل الدولة الإيطالي نيكولو مكياڤلي (1469 ـ 1527)، وذلك بعد ذهابه إلى أن ما نسميه «السلام» إنْ هو ـ في حقيقته ـ إلا «خوف مسلح»؛ إذ لا ينبغي ـ بحسب رأيه ـ لأصحاب الحكم أن ينسـوا أبد الدهر إمكان قيام الحرب. وإن عليهم أن يعدّوا لها العدة على وجه الدوام إعداداً مادياً ومعنوياً. ومن أمر ذلك أنّ الذين كان من بينهم من لا يدعون إلا إلى السـلم وإلى النية الحسـنة، أنهم لو مارسـوا أحد هذين الأمرين بصدق لكان الواحد منهم قد فقَدَ حُكْمه تـوّاً؛ ذلك أن ما يقوم بين أهل السـيادات إنما هو تشـاورٌ لا تخاير. وعلى النهج نفسـه سـار المفكر السياسي والفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز، الذي ذهب إلى أن البشر ليسوا يخرجون من حال «حرب الجميع ضدّ الجميع»، في إطار عقد اجتماعي ينتهي

10 ـ Plato, The Laws, Translated by Susan Sauvé Meyer, Clarendon Plato series, Oxford University Press, 2015, p. 20.

بإعلان السلم المدني، إلا لكي يدخلوا في حال «حرب كل دولة ضدّ كل دولة»؛ على أساس أن «طبيعة الحرب لا تكمن فقط في معركة؛ وإنما في استعداد معترف به للقتال»؛ إذ الأمراء ـ بقياس بعضهم إلى بعض ـ أشبه حالاً بالمصارعين في حلبة صراع، عندما لا يفلون الحديد إلا لكي يلتقطوا أنفاسهم وينخرطوا في حرب تالية. فما ذاك «السلام العالمي» المزعوم إلا أشبه شيء يكون باستراحة محاربين في مضمار حرب لا تخبو إلا لكي تنشب[11].

سوف تذيع هذه الاستعارة في كتب المعاصرين لهوبز، بحيث سينتهون إلى القول بأن ما نحتفي به باسم «السلام» إنما هو مجرد هدنة قصيرة، يتخلى فيها الأضعف عن مطالبه ـ سواء أكانت محقة أم مبطلة ـ لحين يجد الفرصة مواتية، فيعود فيفرضها بقوة السلاح. وهذا ما سيؤكده الفيلسوف السويسري جان جاك روسو الذي عقد فصلاً في كتابه الشهير «العقد الاجتماعي»؛ لكي يذهب فيه إلى أن «حال الحرب إنما ينشأ عن الحالة المدنية»، حيث يقول: «تتحدد عندي حرب القوة بكونها أثراً من آثار استعداد متبادل ودائم وباد لتدمير الدولة العدو، أو على الأقل لإضعافها بجميع الوسائل التي يقتدر عليها. وحين يتحول هذا الإمكان أو الاستعداد إلى فعْل؛ فإنه يصير هو الحرب بمعناها الحصري. وما دام هذا الوضع بلا أثر، فإنه يبقى شاهداً على حال الحرب... وبحسب اعتقادي، فإن حال الحرب إنما هو الحال الطبيعي بين جميع القوى».

**كان أفلاطون قد ميّز ـ في كتابه الشهير: «محاورة النواميس» ـ بين ضربين من السلام: السلام المدني [داخل الدول]، وقد وجد أنه أمْرٌ ممكن، بل ومطلوب؛ و«السلام الخارجي» (بين الدول)، والذي رأى أن لا وجود له على الحقيقة.**

سوف يقتفي الكثير من منظّري الحرب والسلم أثر روسو هذا، حيث سيعدُّ أحد أكبر منظري الحرب في تاريخ الفكر البشري ـ الألماني كارل فان كلاوزوفيتس (1780 ـ 1831) ـ أن الشكل الذي تتخذه الهدنة العسكرية ـ حال

11 ـ Thomas Hobbes of Malmesbury, Leviathan or The Matter Forme and Power of Common-Wealth Ecclesiastical and Civil, London, printed for Andrew Crooke, at the Green Dragon in St. Pauls Church-yard, 1651, p. 77-78.

الاستعداد للحرب ـ إنما هو الاسم المهذب المؤدب اللبق: «التجارة السياسية»[12]؛ ذلك أن «حال الحرب» لا يعني فقط «زمن الحرب» ـ زمن الاعتراك والاشتباك ـ وإنما يعني أيضاً «إمكان الحرب» الذي يظل مخيماً في الآفاق؛ أي الوقت الذي تكون فيه المعركة فرضية واردة الحسبان على كل إنسان أن يضعها في الحسبان. والحق أن السلام ما كان ـ حين يكون حقيقياً ـ هو حال غياب الحرب ظاهراً وبقاؤها مخيمة باطناً ـ الزمن الذي يظل فيه السيف في غمده، وإن بقي رمزياً مشهراً على رقاب العدو ـ وإنما هو في معناه الحق «استحالة الحرب» ـ أو الزمن الذي ما عاد فيه استلال السيف أمراً وارداً. وبهذا تمسي حال السلام الحقيقية هذه حال وضع اجتماعي لا تقوم به حرب، أو تعدّ فيه الحرب غير مشروعة بالمرة. وما من حال جماعة ـ أو جماعات ـ حيث يكون استعمال السلاح مشروعاً أو وارداً إلا ويعدّ حال حرب Status belli

طبقا لهذا المعنى، فإن الباحث برونو أرشيديانيكو ـ صاحب كتاب «خمسة أنماط من السلام» ـ يذهب إلى أنه منذ أن انتظمت البشرية في جماعات، سادت بينها حالة الحرب، وأنه ما كان ثمة من «زمن آخر» غير زمن الحرب: all time is war وعنده أنه لا وجود لحال سلام دائم Status pacis، وكل ما يمكن أن يوجد إنما هو «سلام مستقر» كما حدده عالم السياسة كينيث باولدينغ؛ أي: وضع تبقى فيه الحرب أمراً وارداً، حتى وإن ضعف جدّاً احتمال ورود حدوثها[13]؛ إذ حتى حين لا تتحارب الأُمم، فإن الحرب تبقى هي من يحدد علاقاتها.

بهذا يتبيّن أن كل المفكرين الذي أشرنا إلى أسمائهم يتقاسمون هذه النظرة التراجيدية إلى وضع العالم؛ ينظرون إلى العلاقات الدولية بوصفها حربا دائمة (سواء أكانت معلنة أم غير معلنة). وكل واحد من هؤلاء المنظّرين يقترح منهجه للخروج من هذا الوضع، ولزرع بذرة السلام بين أعضاء البشرية على نحو دائم.

12 ـ Carl von Clausewitz, *On War*. London, Penguin Books, 1982, p. 119.

13 ـ Kenneth Boulding, *Stable Peace*. Austin, University of Texas Press, 1978, p. 13.

## أنواع السلام الدولي والمؤتلف الإنساني:

عادة ما توضع الاقتراحات بإنشاء السلام الدولي تحت مسمى «مخططات السلام الدائم». وقد اتخذت أشكالاً متنوعة في القرون الأربعة الماضية.

بحسب بعضهم كان ينبغي انتظار عصر الأنوار حتى تزدهر مشروعات سلام كونيّة، ولقد كانت من الكثرة حتى تحدث بعضهم عن «ابتداع السلام». والمقصود هنا بلفظ «السلام العالمي» أو «السلام الدولي»: السلام بين أشخاص معنويين ذوي سيادة ومستقلين بعضهم عن بعض؛ وذلك حلّاً للقضية التي تطرحها «المسألة الدولية»، والتي ما فتئت تطرح: كيف نقيم نظاماً سلميّاً بين كيانات متعددة ـ مهما كانت طبيعتها ـ إن كانت هذه تدعي أنها صاحبة سيادة ولا تتبع أي قوى في هذا العالم؟ وذلك بطبيعة الحال في زمن ما عاد فيه النظام الديني هو النظام الذي يحكم العالم؛ وإنما أمسى يفعل ذلك النظام الدنيوي الجديد novus ordo sæculorum

**المقصود هنا بلفظ «السلام العالمي» أو «السلام الدولي»: السلام بين أشخاص معنويين ذوي سيادة ومستقلين بعضهم عن بعض؛ وذلك حلّاً للقضية التي تطرحها «المسألة الدولية».**

وإذا كان قد صحَّ أنه لا وجود إلا لحال حرب واحدة؛ فإن حال السلام بدوره أحوال. وقد صنفها بعض الباحثين في خمسة أنماط، كلها تحددت تحددها المستعلم عنه بين العصر الوسيط والعصر النابليوني، لا سيما بين بداية القرن السابع عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر الميلادي. وهي على التوالي: «سلام الهيمنة»، و«سلام التوازن»، و«سلام الاتحاد السياسي»، و«سلام القانون الدولي»، و«سلام الهيئة الساهرة على تحقيق السلام وحفظه».

وهذه التصنيفات على معايير متعددة: المعيار الأول: ما هو مبدأ اشتغال النظام السلمي القائم: أهو «القوة» أم «القانون»؟ والمعيار الثاني: ما بنية المجموع: أهي درجة تمركز القوة أم درجة تمركز الوظائف التشريعية

والقضائيــة والتنفيذية؟ بحيث يطرح فــي الحال الأول الســؤال: أهناك «قوة عظمى» تشيد السلام وتضمنه أم توجد «عدة قوى»؟ وفي الحال الثاني يطرح الســؤال: الوظائف الضرورية لوضع قوانين النظــام وتطبيقها وإدارتها أتبقى مركّزة في يــد الأعضاء ـ الدول ـ أم إنــه يتمّ تفويضها إلى مؤسســات «فوق قومية»؟ والمعيار الثالث هو: ما نمط الصلات القائمة بين الفاعلين الأساسيين في حال ما إذا كان ثمة نظام متعدد الأقطاب: أهي صلات «تنافســية» أم هي صلات «تعاونية»؟

بناءً عليه تتحدد أنماط «بناء الســلام العالمي» الخمســة هذه على النحو التالــي: عندما يحدث أن تتركــز القوة في كيــان واحد يكون من الضخامة بحيث يفرض النظام على الآخرين؛ نكون آنها أمام نمط السلام الدولي المســمى «ســلام الهيمنة». وعندما لا تعود هذه القــوة الفائقة المهيمنة موجودة، وتتوزع القوة بين قوى عديدة متنافسة ـ اثنتين أو أكثر ـ يمكن آنها للسلم أن ينهض وفق شروط معينة على التحييد المتبادل للقوى التي تتعارض؛ فنكون حينها أمام نمط من السلام الدولي يطلق عليه اسم «سلام التوازن». وإذا كان الفاعلون الأوائل ـ وهم في وضع تعدد القوى ـ قد تفاهموا على وضع حدٍّ للتنافس فيما بينهــم، وعلى إدارة النظام إدارة مشــتركة، حتى صاروا كالجســد الواحد في مواجهة الآخرين؛ فإن السلم ســوف يكون آنها مداراً من لدن هيئة حصرية ومملى من طرفها، وسنكون حينها أمام ضرْب من السلام الدولي يدعى باسم «السلام المدار من لدن هيئة». وفي حال مــا إذا أبرمت كل دول النظام الدولــي ميثاقاً اجتماعياً يبدل بالقوة القانون، بحيث يصير ذلــك مبدأً يحكم علاقات هذه الدول؛ فإننا نصبح آنها أمام ضرْب من السلام الدولي يسمى «سلام القانون» أو «سلام الحق»، ويكون سلام قانون دوليّاً إذا لم يتنازل المتعاقدون إلى أيٍّ عن ممارسة سلطة التشريع والقضاء وتنفيذ الأحكام. وإذا كانوا بميثاقهم هذا قد أوكلوا هذه المهام إلى سلطة عليا، فإننا نصير شاهدين على ضرب من السلام الدولي يحمل مسمى «ســلام الاتحاد السياسي» الذي يخضع إلى قانون من النوع الفيدرالي.

ترى، أي نوع من هذه الأنواع من السلام الدولي يمكن أن يتوافق مع مشروع المؤتلف الإنساني؟

لا شكّ عندي أن الأشكال الثلاثة الأولى من السلام العالمي لا تتماشى مع هذا المشروع، وذلك واضح للعيان؛ بالنظر إلى أنها تفتقد إلى قيمة أساسية وردت في المشروع هي قيمة «العدل»:

الضرب الأول من أضرب السلام الدولي لقيامه على مفهوم «الهيمنة» الذي يناقض مبدأي «العدل» و«المساواة» بين الأُمم.

والضرب الثاني من أضرب السلام الدولي؛ لأنه سلام توازنٍ لا سلام تعادلٍ أو مساواة، وقد يعود بنا إلى حال الحرب الواردة.

**إذا أبرمت كل دول النظام الدولي ميثاقاً اجتماعياً يبدل القوة بالقانون، بحيث يصير ذلك مبدأً يحكم علاقات هذه الدول؛ فإننا نصبح أمام ضرْب من السلام الدولي يسمى «سلام القانون» أو «سلام الحق».**

كما أن السلام الثالث المدار من لدن هيئة يعاني من نقطة ضعف هي إمكان استقواء هذه الهيئة، وفرضها للأمر الواقع على الدول المستضعفة.

يبقى الخيار بين «سلام القانون» أو «سلام الحق» و«سلام الاتحاد السياسي» هو الأمر الوارد، غير أنه لما تبيّن من خلال تجارب الأُمم أن لا اتحاد سياسياً أو تحالفاً إلا وله ضحايا يعينهم بوصفهم «الأعداء»؛ فإن هذا النمط الأخير من السلام أيضاً قد ينحرف عن مبتغاه. وإذن، وحده «سلام الحق» أو «سلام القانون» يمكن أن ينسجم مع مشروع المؤتلف الإنساني، مع ضرورة إيلاء يقظة خاصة نحو مسألة من يطبق القانون الدولي، وكيف، ومن يشرف على تشريع الحق الكوني.

### 2 ـ استباق المآل:

تعود بنا الذاكرة إلى عشرين سنة ونيف، حين اطلعنا على استقصاء سوسيولوجي أوروبي حول قِيَم الشباب، تحت عنوان «الشباب والتاريخ»، شمل 26

دولة أوروبية، وتضمن عينة من 800 إلى 1200 يافع أوروبي، وجرى عام 1998، وتمحور حول «القِيَـم» التي يؤمن بها هـؤلاء، من «إيمـان» و«حرية» و«مال» و«هوية قومية» أو «دينية» و«سـلام» و«عدل». ومن بيـن النتائج التي كان قد انتهـى إليها البحث أنـه لا قيمة «المـال» ولا قيمة «الهويـة» وردَا في مقدّمة أولويات اليافعيـن القيميـة، وإنما الذي حظـي بالأولوية هو قيمة «السـلام» و«السلام بأي ثمن» (ذاك كان رأي 83 بالمائة من المستجوبين)؛ بما يشي بأن قيمة «السلام العالمي» قيمة حيوية، ويؤكد على أنها «مؤتلف إنساني» بامتياز.

نأمل أن هذا الجيل من المعلين من قيمة «السلام الدولي» مؤتلفاً إنسانياً هو الذي يتولى تدبير شـؤون بلدانه، كما نأمل أن يتدبر شأن بلداننا العربية الإسـلامية أيضاً التي هي الأكثر تضرراً من حال الحروب، والأشدّ تطلباً إلى حلول حال من السلام.

## خاتمة:

**ختاماً؛** منذ ما يزيد على قرنين وربع من الزمن (1795) كان الفيلسـوف الألماني كانط قد وضع «مشـروعاً للسـلام العالمي الدائم» قام على «دولة كونيّة» اسـتندت بدورها إلى «تعاقدٍ اجتماعي دولي»، تنبأ الفيلسوف أنه لو تحقق لوضع حدّاً للاحتراب بين البشر. وبعده بقرنين بالتمام والكمال (1995) عاد الفيلسوف الألماني هابرماس ليناقش مواطنه حول المقدمات التي كان قد انطلق منها في بنائه لمشروع السلام العالمي: منها: النبوءة باختفاء الحروب. وجواب هابرماس أن الحروب لم تختـف وإنما تغيّرت طبيعتها. ومنها التفاؤل بأن التجارة الدولية قوة تأنيسـية حاضة على السـلام الدولي، وهو التفاؤل الذي رأى هابرماس أنه يبدو عزيـزاً اليوم. وحده تنبّأ كانـط بإيجاد فضاء عمومي دولي لمناقشة هموم البشرية أبان عن قوة طرح كانط. والحال أن هذا الفضاء الدولي للمناقشة بالعقول بدل الأسلحة، وبالكلمات بدل اللكمات، هو ما يرومه مشروع المؤتلف الإنساني.